

مَعْنَى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

إِنَّ لَفْظَ ﴿بِالصَّبْرِ﴾ أَيُّ النَّاشِئِ عَنْ زَكَاةِ النَّفْسِ عَلَى الْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ مِنْ إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ وَالنَّفْيِ لَهُ وَالْمَحْقِ، وَعَلَى مَا يَحْصُلُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنَ الْأَذَى بِاجْتِنَابِ الشُّرُورِ إِلَى الْمَمَاتِ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ مُوَصَّلٌ إِلَى دَارِ السَّلَامِ.

فَكَانَ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ مَعَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ مُكْمَلِينَ لِلْقُوَّةِ الْعَمَلِيَّةِ حَافِظِينَ لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الْعِلْمِيَّةِ، وَذَلِكَ هُوَ حِكْمَةُ الْعِبَادَاتِ.

فَإِنَّ حِكْمَةَ الشَّيْءِ هِيَ الْغَايَةُ وَالْفَائِدَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْهُ، وَهِيَ هَذَا أَمْرَانِ: خَارِجٌ عَنِ الْعَامِلِ وَهُوَ الْجَنَّةُ، وَدَاخِلٌ قَائِمٌ بِهِ وَهُوَ النُّورُ الْمُقْرَبُ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَاخْتِيارُ التَّعْبِيرِ بِ(الْوَصِيَّةِ) إِشَارَةٌ إِلَى الرَّفْقِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاسْتِعْمَالُ اللَّيْنِ بِغَايَةِ الْجُهْدِ، وَالصَّبْرُ هُوَ خُلَاصَةُ الْإِنْسَانِ وَسِرُّهُ وَصِفَاوَتُهُ وَزُبْدَتُهُ وَعِصَارَتُهُ، الَّذِي لَا يُوَصَّلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِضَغْطِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ وَقَسْرِهَا عَلَى أَفْعَالِ الطَّاعَةِ وَقَهْرِهَا عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ حَتَّى يَصِيرَ الصَّبْرُ لَهَا بِالتَّدْرِيبِ عَادَةً وَصِنَاعَةً، فَقَدْ عَاتَقَ آخِرُهَا أَوْلَهَا، وَوَاصَلَ مِفْصَلُهَا مُوَصَّلَهَا.



إِنَّ (الصَّبْرَ) مِنْ أَعْظَمِ خِصَالِ الْخَيْرِ الَّتِي حَثَّ عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَأَمَرَ بِهَا رَسُولُهُ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُنَّتِهِ الْمُطَهَّرَةِ، وَقَدْ وَرَدَتْ مَادَّةُ (صَبْرَ) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مِائَةٍ وَأَرْبَعَةِ (١٠٤) مَوَاضِعٍ؛ عَلَى تَنَوُّعٍ فِي مَوَارِدِهَا وَأَسْبَابِ ذِكْرِهَا.

فَقَدْ أَمَرَ جَلَّ جَلَالُهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخُلُقِ الصَّبْرِ؛ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا

صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ (النحل/١٢٧)؛

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ (الأحقاف / ٣٥).

وأمرُ بهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ (آل عمران / ٢٠٠).

وَأَتَى عَلَى أَهْلِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ (البقرة / ١٧٧).

وَأَخْبَرَ بِمَحَبَّتِهِ لِلصَّابِرِينَ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ (آل عمران)، وَمَعِيَّتِهِ لَهُمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ (الأأنفال).

وَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ لِأَصْحَابِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٦٦﴾ (النحل).

وَوَعَدَهُمْ أَنْ يُجْزِيَهُمْ أَعْلَى وَأَوْفَى وَأَحْسَنَ مِمَّا عَمِلُوهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴿١٦٦﴾ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٦﴾ (النحل)؛

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ (الرؤس). وَبَشَّرَهُمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ (البقرة). وَأَخْبَرَ أَنَّ جَزَاءَهُمُ الْجَنَّةُ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَزَاءُهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةٌ وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ (الإنسان).

وَقَدْ قَرَنَ (الصَّبْرَ) بِالْقِيَمِ الْعُلْيَا فِي الْإِسْلَامِ، فَقَرَنَهُ بِالْيَقِينِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ (السجدة)، وَقَرَنَهُ بِالتَّوَكُّلِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا

تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَمَلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
 ﴿٥٩﴾ (التكْوِين)

وَقَرَنَهُ بِالتَّقْوَى فِي عِدَّةِ آيَاتٍ مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران)، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (آل عمران)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف / ٩٠).

وَقَرَنَهُ بِالصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ (البقرة)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة).

وَقَرَنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصَّبْرَ بِالْعَمَلِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرْأٍ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ (هود).

وَقَرَنَهُ بِالْجِهَادِ؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التحل، وفي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبَلِّغُنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبَلِّغُنَّكُمْ﴾ (٣١) (مُحَمَّد، ٣١).

وَقَرَنَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ (غافر).

وَقَرَنَهُ بِالتَّسْبِيحِ؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ
 ﴿٤٨﴾ (الطُّور)، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
 وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣﴾ (طه).
 وَقَرَنَ الصَّبْرَ بِالْحَقِّ؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ (سورة العنصر).
 وَقَرَنَهُ بِالرَّحْمَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصُوا بِالرَّحْمَةِ ﴿١٧﴾
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ المِثْمَنَةِ ﴿١٨﴾ (البند).
 وَقَرَنَهُ بِالشُّكْرِ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
 شَكُورٍ ﴿٥﴾ (إبراهيم).



وَحَدِيثُ الْقُرْآنِ عَنِ الصَّبْرِ مُتَنَوِّعٌ وَمُمْتَعٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَّتِهِ وَمَكَانَتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَكَذَا
 الشَّأْنُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ فَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَذَا الخُلُقِ الكَرِيمِ،
 وَكَانَتْ سِيرَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُنْمُودَجًا يُحْتَدَى فِي التَّخَلُّقِ بِخُلُقِ (الصَّبْرِ) بِشَتَّى أَنْوَاعِهِ
 وَأَعْلَى دَرَجَاتِهِ، وَمَنْ قَرَأَ فِي سِيرَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ وَسُنَّتِهِ الْقَوْلِيَّةِ سَيَجِدُ أَنَّ لِلصَّبْرِ شَأْنًا عَظِيمًا. (١)



وَجَمِيعُ أَفْضِيَّةِ اللهِ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ كُلِّهَا خَيْرٌ لَهُ إِذَا صَبَرَ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَشَكَرَ لِحُبُوبِهَا،
 بَلْ هَذَا دَاخِلٌ فِي مُسَمَّى (الإِيَانِ)؛ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (٢) «عَجَبًا لِأَمْرِ

(١) انظر: مُقَدِّمَةُ مُحَمَّدِ بْنِ خَلِيفَةَ بْنِ عَلِيٍّ التَّمِيمِيِّ لِتَحْقِيقِهِ "فَاعِدَةُ فِي الصَّبْرِ" لِابْنِ تَيْمِيَّةَ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (ح ٢٩٩٩)، وَأَحْمَدُ (١/١٧٣)، وَالدَّارِمِيُّ (٢/٣١٨).

الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ؛ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ؛ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: "الصَّبْرُ نِصْبٌ الْإِيْمَانِ، وَالْيَقِيْنُ الْإِيْمَانُ كُلُّهُ". وَفِي رِوَايَةٍ: "الْإِيْمَانُ نِصْفَانِ: فِئْصَفٌ فِي الصَّبْرِ، وَنِصْفٌ فِي الشُّكْرِ".



فَدِ الصَّبْرِ (ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ حَتَّى يَفْعَلَهَا.

النَّوْعُ الثَّانِي: صَبْرٌ عَنِ الْمَنْهِي عَنْهُ حَتَّى لَا يَفْعَلَهُ؛ قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيُّ: (١) لَيْسَ مَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ صَارَ حَبِيبَ اللَّهِ، وَلَكِنْ مَنْ اجْتَنَبَ مَا مَهْرُ عَنْهُ صَارَ حَبِيبَ اللَّهِ، وَلَا يَجْتَنِبُ الْإِثْمَ إِلَّا صِدِّيقٌ مُقَرَّبٌ، وَأَمَّا أَعْمَالُ الْبِرِّ يَعْمَلُهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ".

النَّوْعُ الثَّلَاثُ: الصَّبْرُ عَلَى مَا يُصِيبُهُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ مِنَ الْمَصَائِبِ؛ وَهِيَ نَوْعَانِ:

نَوْعٌ لَا اخْتِيَارَ لِلْخَلْقِ فِيهِ؛ كَالْأَمْرَاضِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَصَائِبِ الَّتِي لَا مَدْخَلَ لِلنَّاسِ فِيهَا وَالَّتِي يَشْهَدُ الْعَبْدُ فِيهَا فِضَاءَ اللَّهِ وَقَدْرَهُ، فَيَصْبِرُ إِمَّا اضْطِرَارًا وَإِمَّا اخْتِيَارًا، فَإِنْ تَفَكَّرَ فِيهَا بَفَتْحٍ مِنَ اللَّهِ عَلَى قَلْبِهِ انْتَقَلَ مِنَ (الصَّبْرِ عَلَيْهَا) إِلَى (الشُّكْرِ لَهَا وَالرِّضَا بِهَا).

النَّوْعُ الثَّانِي: أَنْ يَحْصَلَ لَهُ بِفِعْلِ النَّاسِ فِي مَالِهِ أَوْ عِرْضِهِ أَوْ نَفْسِهِ.

فَهَذَا النَّوْعُ يَصْعُبُ الصَّبْرُ عَلَيْهِ جَدًّا؛ لِأَنَّ النَّفْسَ تَسْتَشْعِرُ الْمُؤْذِي لَهَا، وَهِيَ تَكْرَهُ الْغَلْبَةَ؛ فَتَطْلُبُ الْإِنْتِقَامَ، فَلَا يَصْبِرُ عَلَى هَذَا النَّوْعِ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ، وَكَانَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أُؤْذِيَ يَقُولُ: (٢) «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى! قَدْ أُؤْذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ».

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (ح ٣٤٠٥)، وَمُسْلِمٌ (٣/١٠٩). رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي "حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ" (١٠/١٩٧) بِإِسْنَادِهِ

عَنْ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيِّ ضَمَّنَ كَلَامَ لَهُ طَوِيلٌ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (ح ٣٤٠٥)، وَمُسْلِمٌ (٣/١٠٩).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدَمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ؛ وَيَقُولُ: (١) «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». فَجَمَعَ فِي هَذَا ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: الْعَفْوَ عَنْهُمْ، وَالِاسْتِغْفَارَ لَهُمْ، وَالِاعْتِدَارَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ (الصَّبْرِ) عَاقِبَتُهُ النَّصْرُ وَالْعِزُّ وَالشَّرُورُ وَالْأَمْنُ وَالْقُوَّةُ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَزِيَادَةُ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَمَحَبَّةِ النَّاسِ لَهُ، وَزِيَادَةُ الْعِلْمِ؛ وَهَذَا قَالَ ^٢ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِكَيْبِنَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٤) ﴿السَّجْدَةَ﴾، فَبِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ، فَإِذَا انْصَافَ إِلَى هَذَا الصَّبْرِ قُوَّةُ الْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ تُرْقَى الْعَبْدَ فِي دَرَجَاتِ السَّعَادَةِ بِفَضْلِ اللَّهِ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

وَهَذَا قَالَ ^٣ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿وَمَا يُلْقِيهَا﴾ يَعْنِي: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِثْلَ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ؛ ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥) ﴿فَصَلَّتْ نَصِيبٌ وَافِرٌ؛ وَهِيَ الْجَنَّةُ.



وَيُعِينُ الْعَبْدَ عَلَى هَذَا الصَّبْرِ عِدَّةُ أَشْيَاءٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَالٍ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَا شَاءَ ^٤ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَلَا يَتَحَرَّكُ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ ذَرَّةً إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَاَنْظُرْ إِلَى الَّذِي سَلَّطَهُمْ عَلَيْكَ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَى فِعْلِهِمْ بِكَ، تَسْتَرِيحُ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحَزَنِ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (ح ٣٤٧٧)، وَمُسْلِمٌ (٥/١٧٩).

الثَّانِي: أَنْ يَشْهَدَ ذُنُوبَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا سَلَطَهُمْ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشُّورَى)، فَيَسْتَعْلُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَيَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ بِاللُّؤْمِ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَشْهَدَ الْعَبْدُ حُسْنَ الثَّوَابِ الَّذِي وَعَدَهُ لِمَنْ عَفَى وَصَبَرَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَجَزَاءُ سِنِيَةٍ سِنِيَةً مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشُّورَى).
وَلَمَّا كَانَ النَّاسُ عِنْدَ مُقَابَلَةِ الْأَذَى ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: ظَالِمٌ يَأْخُذُ فَوْقَ حَقِّهِ، وَمُقْتَصِدٌ يَأْخُذُ بِقَدْرِ حَقِّهِ، وَمُحْسِنٌ يَعْفُو وَيَتْرُكُ حَقَّهُ. ذَكَرَ الْأَقْسَامَ الثَّلَاثَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ فَأَوْلَاهَا لِلْمُقْتَصِدِينَ، وَوَسَطَهَا لِلسَّابِقِينَ، وَآخِرَهَا لِلظَّالِمِينَ.

وَإِذَا شَهِدَ فَوْتَ الْأَجْرِ بِالِإِنْتِقَامِ وَالِاسْتِيفَاءِ؛ سَهَلَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ وَالْعَفْوُ.

الرَّابِعُ: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّهُ إِذَا عَفَى وَأَحْسَنَ أَوْرَثَهُ ذَلِكَ مِنْ سَلَامَةِ الْقَلْبِ لِإِحْوَانِهِ، وَنَقَائِهِ مِنَ الْغِشِّ، وَالْغِلِّ، وَطَلَبِ الْإِنْتِقَامِ، وَإِرَادَةِ الشَّرِّ، وَحَصَلَ لَهُ مِنْ حَلَاوَةِ الْعَفْوِ مَا يَزِيدُ لِدَنَّتِهِ وَمَنْفَعَتِهِ عَاجِلًا وَآجِلًا عَلَى الْمَنْفَعَةِ الْحَاصِلَةِ لَهُ بِالِإِنْتِقَامِ أَوْعَاقًا مُضَاعَفَةً.

الخَامِسُ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مَا انْتَقَمَ أَحَدٌ قَطُّ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَوْرَثَهُ ذَلِكَ ذُلًّا يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِذَا

عَفَى أَعَزَّهُ . وَهَذَا بِمَا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ؛ حَيْثُ يَقُولُ: (١) «مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا». فَالْعِزُّ الْحَاصِلُ لَهُ بِالِإِنْتِقَامِ عِزٌّ فِي الظَّاهِرِ وَهُوَ يُورِثُ فِي الْبَاطِنِ ذُلًّا، وَالْعَفْوُ ذُلٌّ فِي الْبَاطِنِ وَهُوَ يُورِثُ الْعِزَّ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

السَّادِسُ -وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْفَوَائِدِ-: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الْجِزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَأَنَّهُ نَفْسُهُ

ظَالِمٌ مُذْنِبٌ، وَأَنَّ مَنْ عَفَى عَنِ النَّاسِ عَفَا عَنْهُ، وَمَنْ غَفَرَ غَفَرَ لَهُ، فَإِذَا شَهِدَ أَنَّ

عَفْوُهُ عَنْهُمْ وَصَفْحَهُ وَإِحْسَانَهُ مَعَ إِسَاءَتِهِمْ إِلَيْهِ؛ سَبَبٌ لِأَنَّ يَجْزِيَهُ كَذَلِكَ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ فَيَعْفُو عَنْهُ وَيَصْفَحُ وَيُحْسِنُ إِلَيْهِ عَلَى ذُنُوبِهِ.

السَّابِعُ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا اشْتَغَلَتْ نَفْسُهُ بِالْإِنْتِقَامِ وَطَلَبِ الْمَقَابَلَةِ ضَاعَ عَلَيْهِ زَمَانُهُ، وَتَفَرَّقَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، وَفَاتَهُ مِنْ مَصَالِحِهِ، مَا لَا يُمَكِّنُ اسْتِدْرَاكُهُ، وَلَعَلَّ هَذَا يَكُونُ أَعْظَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُصِيبَةِ الَّتِي نَالَتَهُ مِنْ جَهْتِهِمْ، فَإِذَا عَفَى وَصَفَحَ فَرَّغَ قَلْبَهُ وَجِسْمَهُ لِمَصَالِحِ الَّتِي هِيَ أَهْمٌ عِنْدَهُ مِنَ الْإِنْتِقَامِ.

الثَّامِنُ: أَنْ انْتِقَامُهُ وَاسْتِيفَاءُهُ وَانْتِصَارُهُ لِنَفْسِهِ وَانْتِقَامُهُ لَهَا، مَعَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ لَمْ يَكُنْ يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ؛ فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَمَّا قَالَتْ: «مَا خَيْرَ رَسُولٍ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تَتَّهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ؛ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ بِهَا»، مَعَ أَنَّ أَدَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَدَى اللَّهِ وَيَتَعَدَّى بِهِ حُقُوقَ الدِّينِ، وَنَفْسَهُ أَشْرَ الْأَنْفُسِ، وَأَرْكَاهَا، وَأَبْرَهَا وَأَبْعَدَهَا مِنْ كُلِّ خُلُقٍ مَذْمُومٍ، وَأَحَقُّهَا بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ؛ فَكَيْفَ يَنْتَقِمُ أَحَدُنَا لِنَفْسِهِ الَّتِي هُوَ أَعْلَمُ بِهَا وَبِمَا فِيهَا مِنَ الْعُيُوبِ وَالشُّرُورِ؟

التَّاسِعُ: إِنَّ أَوْذِيَّ عَلَى مَا فَعَلَهُ اللَّهُ (وَفِي سَبِيلِهِ) أَوْ عَلَى مَا أَمَرَهُ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَتَهَى عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَجَبَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِنْتِقَامُ، فَإِنَّهُ قَدْ أَوْذِيَ فِي اللَّهِ، فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ. وَإِنْ كَانَ قَدْ أَوْذِيَ عَلَى مَعْصِيَةٍ؛ فَلْيَرْجِعْ بِاللَّوْمِ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَكُونُ فِي لَوْمِهِ لَهَا شُغْلٌ عَنْ لَوْمِهِ لِمَنْ آذَاهُ.

وَإِنْ كَانَ قَدْ أُوزِيَ عَلَى حَظٍّ مِنَ الْحُظُوظِ؛ فَلْيُوطِّنْ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ، وَمَعْلُومٌ عِنْدَ النَّاسِ أَنَّ مَنْ صَدَقَ فِي طَلَبِ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ بَدَلَ مِنَ الصَّبْرِ فِي تَحْصِيلِهِ بِقَدْرِ صِدْقِهِ فِي طَلَبِهِ.

العاشِرُ: أَنْ يَشْهَدَ مَعِيَّةَ اللَّهِ مَعَهُ إِذَا صَبَرَ، وَحَبَّةَ اللَّهِ لَهُ وَرِضَاهُ؛ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال)، وَقَالَ: وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾ (آ)

عمران).

الحَادِي عَشَرَ: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الصَّبْرَ نَصٌّ إِيَّائِهِ، فَلَا يُبَدَّلُ مِنْ إِيْمَانِهِ جُزْءًا فِي نُصْرَةِ نَفْسِهِ، فَإِنْ صَبَرَ فَقَدْ أَحْرَزَ إِيْمَانَهُ وَصَانَهُ مِنَ النَّقْصِ، وَ تَعَالَى يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا.

الثَّانِي عَشَرَ: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ صَبْرَهُ حُكْمٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَهْرٌ لَهَا، وَغَلْبَةٌ لَهَا، فَتَمَّتِ كَانَتْ النَّفْسُ مَقْهُورَةً مَعَهُ مَغْلُوبَةً؛ لَمْ تَطْمَعْ فِي اسْتِرْقَاقِهِ وَأَسْرِهِ وَإِلْقَائِهِ فِي الْمَهَالِكِ، وَمَتَّى كَانَ مُطِيعًا لَهَا سَامِعًا مِنْهَا مَقْهُورًا مَعَهَا؛ لَمْ تَنْزَلْ بِهِ حَتَّى تَهْلِكَ، أَوْ تَتَدَارَكَهُ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ.

الثَّلَاثُ عَشَرَ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ إِنْ صَبَرَ فَ نَاصِرُهُ وَلَا يَدُّ، فَإِنَّ اللَّهَ وَكَيْلَ مَنْ صَبَرَ وَأَحَالَ ظَالِمُهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ انْتَصَرَ بِنَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وَكَلَّهُ إِلَى نَفْسِهِ؛ فَكَانَ هُوَ النَّاصِرُ لَهَا. فَأَيُّ مَنْ نَاصِرُهُ خَيْرُ النَّاصِرِينَ، إِلَى مَنْ نَاصِرُهُ نَفْسُهُ أَعْجَزُ النَّاصِرِينَ وَأَضْعَفُهُ؟

الرَّابِعُ عَشَرَ: أَنْ صَبْرَهُ عَلَى مَنْ آذَاهُ وَاحْتِمَالُهُ لَهُ يُوجِبُ رُجُوعَ خَصْمِهِ عَنْ ظُلْمِهِ وَنَدَامَتَهُ وَاعْتِدَارَهُ، وَلَوْمَ النَّاسِ لَهُ؛ فَيَعُودُ بَعْدَ إِذَائِهِ لَهُ مُسْتَحْيِيًا مِنْهُ، نَادِمًا عَلَى مَا فَعَلَهُ،

بَلْ يَصِيرُ مُوَالِيًا لَهُ؛ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا

إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ (فصلت).

الْحَامِسُ عَشْرَ: رَبِّهَا كَانَ اِنْتِقَامُهُ وَمُقَابَلَتُهُ سَبَبًا لِيَزِيدَ شَرَّ خَصْمِهِ وَقُوَّةَ نَفْسِهِ وَفِكْرَتِهِ فِي اَنْوَاعِ الْاَذَى الَّتِي يُوَصِّلُهَا اِلَيْهِ؛ كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ، فَاِذَا صَبَرَ وَعَفَى اَمِنَ مِنْ هَذَا الضَّرْرِ. وَكَمْ جَلَبَ الْاِنْتِقَامَ وَالْمُقَابَلَةَ مِنْ شَرِّ عَجَزَ صَاحِبِهِ عَنْ دَفْعِهِ.

السَّادِسُ عَشْرَ: اَنَّ مَنِ اعْتَادَ الْاِنْتِقَامَ وَلَمْ يَصْبِرْ؛ لَا بَدَّ اَنْ يَقَعَ فِي الظُّلْمِ، فَاِنَّ النَّفْسَ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى قَدْرِ الْعَدْلِ الْوَاجِبِ لَهَا، فَاِنَّ الْغَضَبَ يُخْرِجُ بِصَاحِبِهِ اِلَى حَدٍّ لَا يَعْقِلُ مَا يَقُولُ وَمَا يَفْعَلُ، فَاِذَا اِنْقَلَبَ ظَالِمًا فَلْيَنْتَظِرِ الْمَتَّ وَالْعُقُوبَةَ.

السَّابِعُ عَشْرَ: اَنَّ هَذِهِ الْمَظْلَمَةَ الَّتِي قَدْ ظَلَمَهَا هِيَ سَبَبٌ؛ اِمَّا لِتَكْفِيرِ سَيِّئَةٍ، اَوْ رَفْعِ دَرَجَةٍ، فَاِذَا اَنْتَقَمَ وَلَمْ يَصْبِرْ لَمْ تَكُنْ مُكْفِرَةً لِسَيِّئَتِهِ وَلَا رَافِعَةً لِدَرَجَتِهِ.

الثَّامِنُ عَشْرَ: اَنَّ عَفْوَهُ وَصَبْرَهُ مِنْ اَكْبَرِ الْجُنْدِ لَهُ عَلَى خَصْمِهِ، فَاِنَّ مَنْ صَبَرَ وَعَفَا كَانَ صَبْرُهُ وَعَفْوُهُ مُوجِبًا لِذُلِّ عَدُوِّهِ، وَخَوْفِهِ وَخَشْيَتِهِ مِنْهُ، وَمِنْ النَّاسِ، فَاِنَّ النَّاسَ لَا يَسْكُتُونَ عَنْ خَصْمِهِ وَاِنْ سَكَتَ هُوَ، فَاِذَا اَنْتَقَمَ زَالَ ذَلِكَ كُلُّهُ.

التَّاسِعُ عَشْرَ: اَنَّهُ اِذَا عَفَى عَنْ خَصْمِهِ؛ اسْتَشْعَرَتْ نَفْسُ خَصْمِهِ اَنَّهُ فَوْقَهُ، وَاَنَّهُ قَدْ رَبَحَ عَلَيْهِ، فَلَا يَزَالُ يَرَى نَفْسَهُ دُونَهُ وَكَفَى بِهَذَا فَضْلًا وَشَرَفًا لِلْعَفْوِ.

العِشْرُونَ: اَنَّهُ اِذَا عَفَا وَصَفَحَ كَانَتْ هَذِهِ حَسَنَةً، فَتَوْلَدُ لَهُ حَسَنَةٌ اُخْرَى، وَتِلْكَ الْاُخْرَى تُوَلَّدُ اُخْرَى، وَهَلُمَّ جَرًّا، فَلَا تَزَالُ حَسَنَاتُهُ فِي مَزِيدٍ، فَاِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ، كَمَا اَنَّ مِنْ عِقَابِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا، وَرَبِّهَا كَانَ هَذَا سَبَبًا لِوَجْهِهِ وَسَعَادَتِهِ الْاَبَدِيَّةِ، فَاِذَا اَنْتَقَمَ وَاَنْتَصَرَ زَالَ ذَلِكَ. (١)

و(التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ) كَذَلِكَ صُرُورَةٌ؛ فَالْقِيَامُ عَلَى الْاِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَحِرَاسَةُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ مِنْ اَعْسَرَ مَا يُوَاجِهُهُ الْفَرْدُ وَالْجَمَاعَةُ.

(١) انظر: "قاعدة في الصبر" لابن تيمية، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، باختصار وتصرف.

وَالْحَقُّ ثَقِيلٌ، وَالْمِحْنُ تُلَازِمُهُ؛ فَلِذَلِكَ قَرَنَ بِهِ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ.
وَلَا بُدَّ مِنَ (الصَّبْرِ) عَلَى: جِهَادِ النَّفْسِ، وَجِهَادِ الْغَيْرِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى وَالْمَشَقَّةِ
وَالْبَلَاءِ.

لَا بُدَّ مِنَ (الصَّبْرِ) عَلَى تَبَجُّحِ الْبَاطِلِ وَانْتِفَاشِ الشَّرِّ .. وَالصَّبْرِ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ
وَبُطْءِ الْمَرَاحِلِ، وَانْطِمَاسِ الْمَعَالِمِ، وَبُعْدِ النِّهَآيَةِ!



وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ يُضَاعُ الْمَقْدِرَةَ؛ بِمَا يَبْعَثُهُ مِنْ إِحْسَاسٍ بِوَحْدَةِ الْهَدَفِ، وَوَحْدَةِ
الْمُتَّجِهِ، وَتَسَانُدِ الْجَمِيعِ، وَتَزَوُّدُهُمْ بِالْحُبِّ وَالْعَزْمِ وَالِإِصْرَارِ .. إِلَى آخِرِ مَا يُثِيرُهُ مِنْ مَعَانِي
الْجَمَاعَةِ (وَالْأُمَّةِ) الَّتِي لَا تَعِيشُ حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ إِلَّا فِي جَوْهَا، وَلَا تَبْرُزُ إِلَّا مِنْ خِلَالِهَا ..
وَالِإِذَا فَهَوَ الْخُسْرَانُ وَالصَّيَاعُ.

وَفِي جَعَلِ (التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ) قَرِينًا لِلتَّوَاصِي بِالْحَقِّ؛ دَلِيلٌ عَلَى عَظِيمِ قَدْرِهِ، وَفَخَامَةِ
شَرَفِهِ، وَمَزِيدِ ثَوَابِ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا يَحِقُّ الصَّبْرُ عَلَيْهِ؛ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة/ ١٥٣).

وَأَيْضًا (التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ) بِمَا يَنْدَرُجُ تَحْتَ (التَّوَاصِي بِالْحَقِّ)، فَهُوَ مِنْ بَابِ عَطْفِ
الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ أَيْضًا، فَإِفْرَادُهُ بِالذِّكْرِ وَتَخْصِصُهُ بِالنِّصِّ عَلَيْهِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدَلَّةِ الدَّالَّةِ
عَلَى إِنَافَتِهِ عَلَى خِصَالِ الْحَقِّ، وَمَزِيدِ شَرَفِهِ عَلَيْهَا، وَارْتِفَاعِ طَبَقَتِهِ عَنْهَا.

وَإِنْ كَانَ خُصُوصُهُ خُصُوصًا مِنْ وَجْهِ؛ لِأَنَّ (الصَّبْرَ) تَحْمُلُ مَشَقَّةَ إِقَامَةِ (الْحَقِّ)، وَمَا
يَعْتَرِضُ الْمُسْلِمَ مِنْ أَدَى فِي نَفْسِهِ فِي إِقَامَةِ بَعْضِ الْحَقِّ.
وَهُمَا مَعًا حِفَاظُ كُلِّ خَيْرٍ وَرَأْسُ كُلِّ أَمْرٍ.

وَالْتَخَلَّقُ بِ(الصَّبْرِ)؛ مَلَكَ فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ كُلِّهَا، فَإِنَّ الْإِرْتِيَاضَ بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ لَا يَخْلُو مِنْ حَمْلِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ عَلَى مُخَالَفَةِ شَهَوَاتِ كَثِيرَةٍ، فَبِئْسَ مَخَالَفَتُهَا تَعَبٌ يَقْتَضِي الصَّبْرَ عَلَيْهِ حَتَّى تَصِيرَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ مَلَكََةً لِمَنْ رَاضٍ نَفْسُهُ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَتْرِكْ طَعَامًا يُحِبُّهُ وَلَمْ يَنْهَ قَلْبًا غَاوِيًا حَيْثُ يَمَّا
فِيوَشِكُ أَنْ تُفْلَى لَهُ الدَّهْرُ سُبَّةً إِذَا ذُكِرَتْ أَمْثَالُهَا تَمَلُّ الْفَمَا
وَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ كُلُّهَا لَا تَخْلُو مِنْ إِكْرَاهِ النَّفْسِ عَلَى تَرْكِ مَا تَمِيلُ إِلَيْهِ.
وَفِي الْحَدِيثِ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».



﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ * أَي:

بِالصَّبْرِ عَلَى تَحْمُلِ الْبَلَاءِ وَالْأَذَى الَّذِي لَا بَدَّ أَنْ يَلَاقِيَهُ السَّائِرُ إِلَى اللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.
وَالصَّبْرُ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ الَّتِي تَشْتَأِقُ إِلَيْهَا النَّفْسُ بِحُكْمِ الْجَبَلَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَاحْتِمَالِ
الْمَكْرُوهِ مِنَ الْحَرَمَانِ مِنَ اللَّذَّةِ، إِنْ كَانَ فِي نَيْلِهَا مَا يُجَالِ حَقًّا أَوْ مَا لَا تَأْذُنُ بِهِ الشَّرِيعَةُ
الصَّحِيحَةُ الَّتِي لَا اخْتِلَافَ فِيهَا.

وَالصَّبْرُ عَلَى الْفَرَائِضِ وَالطَّاعَاتِ الَّتِي يَشُقُّ عَلَى الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ الْبَشَرِيَّةِ أَدَاؤُهَا،
وَاحْتِمَالِ الْآمِهَاتِ إِذَا عَرَضَتْ بِدُونِ جَزَعٍ وَلَا خُرُوجٍ فِي دَفْعِهَا عَنْ حُدُودِ الْحَقِّ وَالشَّرْعِ.
وَالصَّبْرُ: قُوَّةٌ لِلنَّفْسِ تَدْعُوهَا إِلَى احْتِمَالِ الْمَشَقَّةِ فِي الْعَمَلِ الطَّيِّبِ، وَتُهَوِّنُ عَلَيْهَا احْتِمَالِ
الْمَكْرُوهِ فِي سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَى الْأَغْرَاضِ الشَّرِيفَةِ.

وَحَقِيقَةُ (الصَّبْرِ) أَنَّهُ: مَنَعَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ مِنْ تَحْصِيلِ مَا يَشْتَهِيهِ أَوْ مِنْ مُحَاوَلَةِ تَحْصِيلِهِ (إِنْ
كَانَ صَعَبَ الْحُصُولِ، فَيَتْرِكُ مُحَاوَلَةَ تَحْصِيلِهِ لِحُوفٍ ضُرٌّ يَنْشَأُ عَنْ تَنَاوُلِهِ؛ كَخَوْفِ غَضَبِ
اللَّهِ أَوْ عِقَابِ وُلَاةِ الْأُمُورِ) أَوْ لِرَغْبَةِ فِي حُصُولِ نَفْعٍ مِنْهُ (كَالصَّبْرِ عَلَى مَشَقَّةِ الْجِهَادِ

وَالْحَسْبُ رَغْبَةً فِي الثَّوَابِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ؛ رَغْبَةً فِي تَحْصِيلِ مَالٍ أَوْ سُمْعَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ).

وَمِنَ (الصَّبْرِ) الصَّبْرُ عَلَى مَا يُلَاقِيهِ الْمُسْلِمُ إِذَا أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ امْتِعَاضِ بَعْضِ الْمَأْمُورِينَ بِهِ أَوْ مِنْ أَذَاهُمْ بِالْقَوْلِ؛ كَمَنْ يَقُولُ لِأَمْرِهِ: هَلَّا نَظَرْتَ فِي أَمْرِ نَفْسِكَ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

فَطَرِ ُ الْإِيْمَانَ وَالِإِسْتِقَامَةَ عَلَى شَرِيْعَتِهِ لَيْسَ أَمْرًا هَيْئًا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مُعَانَاةٍ وَصَبْرٍ عَلَى مُغَالَبَةِ الشَّهَوَاتِ، وَقَهْرِ دَوَاعِي الْأَهْوَاءِ، وَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ..
فَطَرِ ُ الْحَقِّ طَرِيقٌ مَخْفُوفٌ بِالْمَكَارِهِ، وَ(الصَّبْرُ) هُوَ زَادَ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ طَرِيقَهُ، وَيَبْلُغُونَ بِهِ غَايَاتِ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ.

وَأَمَّا تَحْمُلُ مَشَقَّةٍ فِعْلُ الْمُنْكَرَاتِ؛ كَالصَّبْرِ عَلَى تَجَسُّمِ السَّهْرِ فِي اللَّهْوِ وَالْمَعَاصِي، وَالصَّبْرِ عَلَى بَشَاعَةِ طَعْمِ الْخَمْرِ لِشَارِبِهَا، فَلَيْسَ مِنَ الصَّبْرِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ التَّحْمُلُ مُبْعَثٌ عَنْ رُجْحَانِ اسْتِهْيَاءِ تِلْكَ الْمَشَقَّةِ عَلَى كَرَاهِيَةِ الْمَشَقَّةِ الَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِي تَرْكِهَا.



وَأَفَادَتْ صِيغَةُ (التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَبِالصَّبْرِ) أَنْ يَكُونَ شَأْنُ حَيَاةِ الْمُؤْمِنِينَ قَائِمًا عَلَى سُيُوعِ الْأَمْرِ بِهَا دَيْدَنًا لَهُمْ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي اتِّصَافَ الْمُؤْمِنِينَ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَصَبْرِهِمْ عَلَى الْمَكَارِهِ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ وَأَمْتِهِ؛ لِمَا يَقْتَضِيهِ عُرْفُ النَّاسِ مِنْ أَنْ أَحَدًا لَا يُوصِي غَيْرَهُ بِمُلَازِمَةِ أَمْرٍ إِلَّا وَهُوَ يَرَى ذَلِكَ الْأَمْرَ خَلِيقًا بِالْمُلَازِمَةِ، إِذْ قَلَّ أَنْ يُقَدِّمَ أَحَدٌ عَلَى أَمْرٍ بِحَقِّ هُوَ لَا يَفْعَلُهُ، أَوْ أَمْرٍ بِصَبْرٍ وَهُوَ ذُو جَزَعٍ؛ فَكَيْفَ تَكُونُ بِنَفْسِكَ غَيْرَ مُتَحَلِّيٍّ بِهَا؟ وَإِلَّا دَخَلْتَ فِي مَنْ يَقُولُ وَلَا يَفْعَلُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا

تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ (الصَّف / ٢، ٣)، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ

تَعَالَى تَوْبِيحًا لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ (البقرة/ ٤٤).



وَقَدْ اشْتَمَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عَلَى إِقَامَةِ الْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ كُلِّهَا؛ فَالْعَقَائِدُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَالْأَخْلَاقُ الدِّينِيَّةُ مُنْدرِجَةٌ فِي (الْحَقِّ)، وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ وَتَجَنُّبُ السَّيِّئَاتِ مُنْدرِجَةٌ فِي (الصَّبْرِ).



وَ(التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ): أَنْ يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهِ وَيُحْتِثُّ عَلَيْهِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ نَافِعًا مَقْبُولًا إِلَّا إِذَا كَمَّلَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ بِهِ؛ وَإِلَّا صَدَقَ عَلَيْهِ قَوْلُ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّؤَلِيِّ:
يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمَ غَيْرُهُ هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ
نِصْفُ الدَّوَاءِ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى كَيْمَا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمٌ
وَفِي جَعَلِ (التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ) قَرِينًا (لِلتَّوَاصِي بِالْحَقِّ) دَلِيلٌ عَلَى عَظِيمِ قَدْرِهِ وَفَخَامَةِ شَرَفِهِ، وَمَزِيدِ ثَوَابِ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا يَحِقُّ الصَّبْرُ عَلَيْهِ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾ (البقرة/ ١٥٣).

وَأَيْضًا (التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ) بِمَا يَنْدرِجُ تَحْتَ (التَّوَاصِي بِالْحَقِّ)، فَإِفْرَادُهُ بِالذِّكْرِ وَتَخْصِيصُهُ بِالنِّصِّ عَلَيْهِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدَلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى إِنْافَتِهِ عَلَى خِصَالِ الْحَقِّ، وَمَزِيدِ شَرَفِهِ عَلَيْهَا، وَارْتِفَاعِ طَبَقَتِهِ عَنْهَا.

فَتَخْصِيصُ هَذَا التَّوَاصِي بِالذِّكْرِ مَعَ انْدِرَاجِهِ تَحْتَ (التَّوَاصِي بِالْحَقِّ)؛ لِإِبْرَازِ كَمَالِ الإِعْتِنَاءِ بِهِ، أَوْ لِأَنَّ الْأَوَّلَ عِبَارَةٌ عَنِ رُتْبَةِ الْعِبَادَةِ الَّتِي هِيَ فِعْلٌ مَا يَرْضَى بِهِ^٨ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالثَّانِي عَنِ رُتْبَةِ الْعُبُودِيَّةِ الَّتِي هِيَ الرِّضَى بِمَا فَعَلَ^٩.

فَإِنَّ الْمُرَادَ بِ(الصَّبْرِ) لَيْسَ مُجَرَّدَ حَبْسِ النَّفْسِ عَمَّا تَشْتَوِي إِلَيْهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ؛ بَلْ هُوَ تَلَقُّي مَا وَرَدَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْجَمِيلِ وَالرَّضَى بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.



﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ أَي: عَلَى الْمَصَائِبِ وَالْأَقْدَارِ، وَأَذَى مَنْ يُؤْذِي مَنْ يَأْمُرُونَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى كُلِّ مَا يَبْلُوُ بِهِ عِبَادَهُ. وَعَنِ الْمَعَاصِي الَّتِي تَشْتَأِقُ إِلَيْهَا النَّفْسُ بِحُكْمِ الْجِبِلَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَعَلَى الطَّاعَاتِ الَّتِي يَشْتَقُّ عَلَيْهَا أَذَاهَا.



وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ الطَّوَائِفِ بِالآيَةِ عَلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ مُحَلَّدٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَنْ مِنْ الْخُسْرَانِ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ الْخ.

وَالرَّدُّ عَلَى أَنَّ غَيْرَ الْمُسْتَنْى فِي (خُسْرٍ) لَا مُحَالَةَ؛ إِمَّا بِالْخُلُودِ إِنْ مَاتَ كَافِرًا، وَإِمَّا بِالْدُخُولِ فِي النَّارِ إِنْ مَاتَ عَاصِيًا لَمْ يُغْفَرْ لَهُ، وَإِمَّا بِفَوَاتِ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ إِنْ غَفَرَ.



أَمَّا الْخُسْرَانُ بِالْكَفْرِ؛ فَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الزُّمَرُ / ٦٥).

وَقَوْلِهِ: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ (الْأَنْعَامُ / ٣١)، أَي: لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا لِهَذَا اللَّقَاءِ، وَقَصُرُوا أَمْرَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَضَيَعُوا أَنْفُسَهُمْ، وَحَظَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا الْخُسْرَانُ بِتَرْكِ الْعَمَلِ، فَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الْأَعْرَافُ / ٩)، لِأَنَّ الْمَوَازِينَ هِيَ مَعَايِيرُ

الْأَعْمَالِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. ﴿ (الزُّمَرَةُ / ٧، ٨).

وَمِثْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا

﴿١١٩﴾ (النِّسَاءُ / ١١٩)، لِأَنَّهُ سَيَكُونُ مِّنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ؛ ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ

﴿١١٩﴾ (المُجَادَلَةُ / ١٩)، أَيَّ بَطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وَأَمَّا الْخُسْرَانُ بِتَرْكِ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ فَلَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَالْحَقُّ هُوَ الْإِسْلَامُ بِكَامِلِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

الْخَسِرِينَ ﴿٨٥﴾ (آلِ عِمْرَانَ / ٨٥).

وَأَمَّا الْخُسْرَانُ بِتَرْكِ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ وَالْوُقُوعِ فِي الْهَلَعِ وَالْفِرَاعِ؛ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ (الْحَجَّ / ١١).



وَقَالَ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ (ت ٦٠٦هـ): (١).

فَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَّ فِي أَهْلِ الْإِسْتِثْنَاءِ أَنَّهُمْ بِإِيْمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمْ الصَّالِحِ خَرَجُوا عَنْ أَنْ يَكُونُوا فِي خُسْرٍ وَصَارُوا أَرْبَابَ السَّعَادَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ تَمَسَّكُوا بِمَا يُؤَدِّيهِمْ إِلَى الْفَوْزِ بِالثَّوَابِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعِقَابِ وَصَفَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَدْ صَارُوا لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِمْ لِلطَّاعَةِ لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَا يُحْضِرُهُمْ بَلْ يُوصُونَ غَيْرَهُمْ بِمِثْلِ طَرِيقَتِهِمْ لِيَكُونُوا أَيْضًا سَبَبًا لِطَاعَاتِ الْغَيْرِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ أَهْلُ الدِّينِ، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ (التَّحْرِيمُ / ٦)، فَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ يَدْخُلُ فِيهِ سَائِرُ الدِّينِ مِنْ

(١) فِي تَفْسِيرِهِ "مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ = التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ" (٣٢ / ٢٨١، ٢٨٢).

عِلْمٍ وَعَمَلٍ، وَالتَّوَّاصِي بِالصَّبْرِ يَدْخُلُ فِيهِ حَمْلُ النَّفْسِ عَلَى مَشَقَّةِ التَّكْلِيفِ فِي الْقِيَامِ بِمَا يَجِبُ، وَفِي اجْتِنَابِهِمْ مَا يَحْرُمُ إِذِ الْإِقْدَامُ عَلَى الْمُكْرَاهِ، وَالْإِحْجَامُ عَنِ الْمُرَادِ كِلَاهُمَا شَأْنٌ شَدِيدٌ، وَهَاهُنَا مَسَائِلُ:

المسألة الأولى: هذه الآية فيها وعيدٌ شديدٌ، وذلك لأنه تعالى حكَمَ بالحَسَارِ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ إِلَّا مَنْ كَانَ آتِيًا بِهِذِهِ الْأَشْيَاءِ الْأَرْبَعَةَ، وَهِيَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ وَالتَّوَّاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَّاصِي بِالصَّبْرِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ النَّجَاةَ مُعَلَّقَةً بِمَجْمُوعِ هَذِهِ الْأُمُورِ وَإِنَّهُ كَمَا يَلْزَمُ الْمُكَلَّفَ تَحْصِيلَ مَا يَخُصُّ نَفْسَهُ فَكَذَلِكَ يَلْزَمُهُ فِي غَيْرِهِ أُمُورٌ، مِنْهَا الدُّعَاءُ إِلَى الدِّينِ وَالنَّصِيحَةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ يُجِبَّ لَهُ مَا يُجِبُّ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ كَرَّرَ التَّوَّاصِي لِيُضْمِنَ الْأَوَّلَ الدُّعَاءَ إِلَى اللَّهِ، وَالثَّانِي الثَّبَاتَ عَلَيْهِ، وَالْأَوَّلَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالثَّانِي النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ (نَفْثَانِ) (١٧)، وَقَالَ عُمَرُ: رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عِيُوبِي.

المسألة الثانية: دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ، وَأَنَّ الْمِحْنَ تُلَازِمُهُ، فَلِذَلِكَ قَرَنَ بِهِ التَّوَّاصِي.

المسألة الثالثة: إِنَّمَا قَالَ: وَتَوَّاصُوا وَلَمْ يَقُلْ: وَيَتَوَّاصُونَ لِثَلَاثِ أَسْبَابٍ أَمْرًا بَلِ الْغَرَضُ مَدْحُهُمْ بِمَا صَدَرَ عَنْهُمْ فِي الْمَاضِي، وَذَلِكَ يُفِيدُ رَغَبَتَهُمْ فِي الثَّبَاتِ عَلَيْهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

المسألة الرابعة: قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو: (بِالصَّبْرِ) بِشَمِّ الْبَاءِ شَيْئًا مِنَ الْحَرْفِ، لَا يُشْبَعُ؛ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: وَهَذَا مِمَّا يَجُوزُ فِي الْوَقْفِ، وَلَا يَكُونُ فِي الْوَصْلِ إِلَّا عَلَى إِجْرَاءِ الْوَصْلِ مَجْرَى الْوَقْفِ، وَهَذَا لَا يَكَادُ يَكُونُ فِي الْقِرَاءَةِ، وَعَلَى هَذَا مَا يَرَوَى عَنْ سَلَامِ بْنِ الْمُنْذِرِ أَنَّهُ قَرَأَ، (وَالْعَصْرُ) بِكَسْرِ الصَّادِ؛ وَلَعَلَّهُ وَقَفَ لِانْقِطَاعِ نَفْسٍ أَوْ لِعَارِضٍ مَنَعَهُ مِنْ إِدْرَاجِ الْقِرَاءَةِ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ لَا عَلَى إِجْرَاءِ الْوَصْلِ مَجْرَى الْوَقْفِ.

